

جامعة تكريت

كلية التربية للبنات / قسم اللغة العربية

المادة : الصرف للمرحلة الثانية

أستاذ المادة :أ.د. عماد حميد أحمد ...

إيميل التدريسي : E.Alkazrajy@tu.edu.iq

المحاضرة الثالثة :القياس

يرد مفهوم القياس عند العرب بثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : مرحلة النشأة الدراسة اللغوية التي انجزها الخليل وسيبويه وشيخهما أمثال أبي عمرو بن العلاء وغيره من هؤلاء الذين نظروا إلى القياس النحوي على أنه جمع النظير إلى نظيره والخروج بقاعدة تستوعب النظائر , فكل النصوص المتناظرة المتشابهة استنبطوا منها قاعدة عامة تنطبق على قولهم بأن الفاعل مرفوع وما بعد (أن) منصوب وما إلى ذلك بمعنى أنهم إذا ذكروا القياس انصرفوا اذهانهم إلى هذا المفهوم فحين يقال أن عبد الله بن إسحاق الحضرمي أول من مد القياس فهذا يعني أن أول من استنبط طائفة من القواعد اللغة العربية مستعينا على ذلك بالقياس وقبل ذلك سيبويه والخليل.

فالقياس هو مجموعة من الظواهر تجمعها قاعدة واحدة ويقصد به استنباط مجهول من معلوم يمثل هذا المفهوم قول أبي عمرو بن العلاء حين قيل له : ما قولك فيما تسميه في العربية , هل يدخل فيه كلام العرب كله ؟

فقال : لا , فقليل له فإذا وقعت على ما يخرج عن هذه الضوابط , قال : اعمل على الأكثر واسمي ما خالف اللغات .

فأكثره هو الذي يخرج منه بقاعدة , أما ما يخالف الأكثر فيحفظ ولا يقاس عليه .

المرحلة الثانية : ولكن حينما تقدم درس النحوي وقطع شوطاً كبيراً في القرن الثاني وبداية القرن الثالث , ونضج الدرس النحوي على يدي الفراء . انقسموا إلى قسمين البصري والكوفي , فالبصريون يقيسون على الأكثر كما هو المعلوم , والكوفيون يقيسون على القليل والكثير وهذا الفرق واضح بين الفريقين .

ونظرة البصريين إلى القياس اسلم من نظرة الكوفيين إليه ؛ لأن الكوفيين قاسوا على القليل والكثير والمضطرب والشاذ فيها , هذا ما جرا الاضطراب للنحو ومن المفروض أن يخرج عن كثير ينتمي عن طريق اللغوي وينظر إليه على أنه استعمال معين يدرس في اطره الخاصة , فالبصري خطأ حين أول والكوفي خطأ حين جمع كل شيء فكلاهما خالف المنهج العلمي .

المرحلة الثالثة : حينما حل القرن الرابع الهجري و ازدهرت الحضارة , واحتاج العرب إلى الجديد من الألفاظ ليعبروا بها عما واجههم من أمور علمية وعقلية واجتماعية . وجدوا أن اللغة فيها مرونة لا تسعفهم بما يحتاجون اليه من هذه الألفاظ اضطروا الى الاستعانة بالقياس مرة أخرى ولكن بطريقة جديدة تغير من اجلها مفهومهم للقياس فبعد أن كان يعني بالأوائل و مؤسسي الدرس للغة وسن القوانين , صار يعني عند هؤلاء استنباط جديد غير مسموع أو مجهول من معلوم فأصبحت غاية القياس تنمية اللغة ومدها بالجديد من الألفاظ والمفردات على أن قاسوا هذه المفردات مقياسا على ما نطق به العرب ومنسوجة على منواله وهذا تطوير جديد في معنى القياس ووظيفة أخرى له , ولما انقسم الأوائل بشأن مفهوم القياس الأول , و انقسموا ازاء مفهومه الثاني ولكن انقسامهم هذه المرة لم ينشأ عنه انقسام مذهبي أو مدرسي بالتعبير المعاصر كما هي الحال في المرحلة الأولى (البصريون , الكوفيون) . فلم يعد هناك بصريون وكوفيون بل هو وجهة نظر لأولئك اللغويين في القرن الرابع الهجري فبعضهم اجاز القياس واباحه ورواه بابا مفيدا يثري اللغة ويسد نقصها ويلبي حاجة المتكلمين بها لاستحداث الألفاظ جديدة لتعبير عن المعاني جديدة ليس في اللغة ما يعبر عنها ولكن على أن تكون هذه الألفاظ مغايرة لأبنية اللغة وقواعدها الصرفية ونستطيع أن نقول : أن القياس الصرفي يخدم أبنية اللغة ووظيفة التوصل إلى أبنية جديدة مستنبطة من أبنية قديمة مألوفة فهؤلاء تزعموا التبار الذي يدعو إليه شيخهم أبو علي الفارسي وتلميذه ابن جني , وكان بحق زعيم مدرسة القياس بالمعنى الجديد , والذي يرجع إلى الخصائص يجد مواضع كثيرة وابوابا في الكتاب تتحدث عن هذا المفهوم فيها ((باب ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب)) . حتى بلغ الأمر بأبي علي الفارسي وتلميذه أن يقول : إذا احتاج أحد في الشعر أو السجع إلى كلمة [ضرب , دخل , خرج] فليستعملها لأنها على وزن (فعل) وهو مما تكلمت به العرب لأنهم يقولون إذا تكلم العربي بلهجة من اللهجات العرب فكلامه مقبول (صحيح) , فحينما يقال أن ابن جني يقيس فليس هو القياس الذي غايته تعويد اللغة والصرف ؛ لأن اللغة والصرف كانا مقعدين لكن غايتهم مد اللغة بالجديد فهم يتكلمون فيما يقوله العرب أو يدخل في اللغة ويوجد له مسوغ .

وكلاهما حركة لابد منها فهو يعني كيف تواجه الجديد ولكنها لم تكن منظمة ولا تخضع لضوابط على النحو الذي سنشير إليه عند الحديث عن القياس .

الاشتقاق

أهم ميزة للعربية الاشتقاق فاللغات تنقسم إلى لصيقة ,عازلة ,اشتقاقية و عازلة اردؤها وأكثرها ؛ لأن الكلمة فيما تكون صماء غير قابلة لأن يتصرف فيها , فهي تبقى كما هي فتقول مثلا (ضرب أنا) و (سلم على أنا) و (ضرب ويد أنا) .

واللغة الالصاقية التي يستعان بها على الاشتقاق بالالصاق اللواحق والسوابق , كما هي الحال في اللغة الانجليزية في اللصاق والعربية كذلك مثل (معلم- معلمون) و (ضرب – يضرب) .

واللغة الاشتقاقية هي ارقى اللغات وهي التي تؤخذ من الكلمة الواحدة فيها عدة كلمات وقد تتفاوت اللغات في سعتها للاشتقاقية . ومن أوسع اللغات الاشتقاقية هي اللغة العربية , وأحيانا يصل ما يشتق من الكلمة الواحدة أكثر من عنصر الكلمات .

إن العرب كعادتهم في البحث في أصول الظواهر اللغوية وتكلموا على الاشتقاق فقال بعضهم أن الاسم هو الأصل في الاشتقاق , وقال بعضهم الآخر أن الفعل هو أصل الاشتقاق , وكلا الفريقين غير مصيب لأن الأصل والفرع لا يثبت بالمنطق . فلا يمكن أن ندعي أن هذه الكلمة أصل لغيرها بالمنطق ولكن نثبت ذلكم بدليل الاستعمالي فلا يمكن أن نحكم على الأمر منطقي أو مبدئي على منطلق أن يكون أصلا فكل ما جاء به الفريقان جدل فارغ وكذلك بحديثهم بشأن التغير والتصريف لا يمكن اثباته بالمنطق . فالدرس اللغوي الحديث الآن يقول أن الجذر هو الأصل لأن الجذر هو مجموعة صوامت لا سبيل للنطق بها لأنك حين تنطق به يخرج من كونه جذرا يصبح كلمة والجذر مجموعة من اصوات خام يمكن أن تتشكل في اشكال مختلفة للفاعلية وزن للمفعولية وزن .

والاشتقاق يقسمه اللغويون على اقسام : وهذه الأقسام يرجع الفضل فيها إلى ابن جني , فابن جني ذكر الاشتقاق الكبير ولم يذكر غيره من المسميات وكان يريد بهذا الجذر الثلاثي يصلح لأن يؤخذ منه ست كلمات بطريقة التقلب ولكن لكل كلمة معنى يدور من معنى عام يجمع الكلمات الستة كلها والجذر على أي درجة قلبته يبقى مندمجا تحت معنى عام تشترك فيه سائر الكلمات وهذه الفكرة ليست ابتكار ابن جني وإنما هي فكرة الخليل جاء بها لغرض رياضي حتى كلمات اللغة علم يريد أن يقول أن لكل كلمة معنى يدور معها ابراز براعة النحويين , فالأول يخدم اللغة لأنه اثمر قواعد اللغات والثاني يخدم كذلك لأنه سبيل امدادها بالجديد وهو مزية اللغة العربية لأنها قياسية لكن الثالث ليست له وظيفة تخدم اللغة والنمو لذلك دعا ابن مضاء إلى إلغائه والتوصل منه .

وهناك أيضاً ما يعرف بالقياس إلى طيء أو ما يصرف بالتوهم والحمل ومفهوم هذا النوع من القياس هو أن المتكلم يصوغ الجديد الذي يحتاج إليه على ما وقعت عليه ذاكرته من خزين لغوي فهو يقيس الجديد على بعض الخزين وأحيانا يكون قياسا صحيحا والكلمة مقبولة , ولا اعتراض عليها و أحيانا يكون القياس خاطئا وتكون الكلمة موضع نزاع واخذ ورد ولكنها تستقر في اللغة ويبقى الناس يتنازعون فيما بينهم فيها ومن اللغة امثلة كثيرة على هذا النوع مثل كلمة (تمنطق) بمعنى لبس نطاقه و (تمدرع , وتمذهب , تمسكن) لأنهم تصوروا أن الميم أصلية فأتوا بها على وزن (تمفعل). والقياس الصحيح (تنطق وتدرع وتسكن وتذهب) و (تمحور وتمركز) والمفروض (تركز وتمحور) , ولكن إذا قلنا (تذهب) تشبه بالذهب و (تنطق) تشبه بالنطق و (تمسكن) تشبه بالسكنة .

وذلك بأنهم أجروا على القياس الأصلي وكانت هذه الكلمة مغيرة للبس ومحملة على معنى غير مقصود ومع ذلك يقولون هو قياس مخطئ . فقد عوملت فيها الميم على أنها أصلية وهي زائدة .

ومثال ذلك سراويل فكلمة (سراويل قياسا خطئ في حين أن (سراويل) مفردا وجمعها (سراويلات) , كذلك (مصران) جمع مصير و (رغيف رغفان) و (حصير – حصران) فقالوا مصران أعور , وجاء جمع مصران وجمعوها مصارين وهؤلاء بأمن لأنه جمع الجمع .

كلمة ذباب مفردا وجمعها ذبان لكنهم قالوا أنها جمع ومفردا (ذبابة) في حين الذبابة طرف الشيء فقد نبه أبو بكر الزبيدي إلى ذلك في من تلحقه إضافة وهو مثل (عقاب – عقبان) .

وهذه الكلمات قيست وكان القياس خطأ ولكن ثبتت في اللغة واستعملها المتكلمون في اللغة , هذه هي نظرية تطور اللغة ومفهوم القياس تبدل خلال العصور وكذلك أدى إلى تبدل الوظيفة .

العصر الحديث:

إن اللغة تستوعب الجديد بالقياس وهم يقصدون الاشتقاق بالقياس لأن الاشتقاق تطبيق القياس والذي يبيح القياس والاشتقاق .

وهناك تيار آخر وقف بوجه المبيحين للقياس الداعين إليه ويتزعم هذا الفريق ابن فارس وكذلك الأمدي في كتابه الموازنة فما شدد النكير على أبي تمام بسبب توليده ألفاظ لم يتكلم بها العرب وإنما قياسها ونسيجها على منوال ما تكلم به العرب ومن الذين ساندوا القياس من نقاد الأدب (الجرجاني) في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه .

لقد أثرت عن ابن فارس أقوال غريبة هدفها منع الجديد عن اللغة مطبقا في ذلك نظرية دينية فهو من القائلين بالتوقيف أي أن اللغة من الله تعالى ووقف على الانبياء نبيا بعد نبي , وحينما جاء الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم , فقد استوفوا من اللغة ما يحتاج إليه , وقرأ اللغة من يخطؤون ويوقفه , فاللغة ختمت على يد النبي صلى الله عليه وسلم وليس هناك من جديد بعده وأن أحدث فهي خاطئة وأن كانت على القياس وتكلم به العرب .

ونظرة ابن فارس هذه ليست علمية قال في صاحبي : ((ليس لنا أن نقيس قياسا لم يقيسوه و أن نبتدع لفظا لم يقولوه , فاللغة وضعت بهذا في قارورة وأحكم سدها وقدمت في الدنيا .

لم يكن هذا الصراع ليمضي دون أن يترك أثر في الحركة الأدبية اللغوية لذلك نقرأ في كتب الأدب و اللغة الكثير من الخلاف , حيث أن النظرة إلى القياس تختلف ما بين الشعراء والأدباء , وكذلك ما وجه للمتنبي من حملات ضده بسبب قياسه كلمات لم تتكلم بها العرب فيقول مخاطبا سيف الدولة الحمداني :

فدى من على الغبراء أوله أنا **** بهذا الأبي الماجد الجائد القرم

فجاد بكلمة (جائد) والعرب تصيغ من جاد وجود وجاد . وإنما تقول (جواد) فصارت ضجة بشأنه فأتي منه اسم الفاعل على وزن (فاعل) فيقول كل هذا باب لا يحتاج فيه الأديب أن يسأل هل تكلمت به العرب أم لم تتكلم به والملتزمون امثال ابن فارس يرفضون ذلك ومما انتقد المتنبي عليه قوله : العاضي الهتن ابن العارض الهتن.

فقالوا أن العرب لم تتكلم بـ (الهتن) وإنما قالوا (هاتن, هتون) فقالوا هذه تسمية أهل القياس الذين أجازوا الاستعمال ولكن احتجاج الشعر إلى التوليد معنى جديد هو أقل ثمرة فما قيس عليه في اللغة .

وقد أستمريت المعركة حتى العصر الحديث بين القياسيين وغير القياسيين , وهذا هو المفهوم الثاني للقياس عند العرب وهناك مفهوم ثالث عند العرب عُرف فيه القياس في مرحلة نضج الدراسات النحوية واللغوية , ولولوع النحاة بالتعليل وشغفهم بإخضاع المقولات اللغوية وما تكلم به العرب للمنطق الفعلي .

ويمكن أن نسمي هذا المفهوم الجديد للقياس الذي أستخدم التعليل والتسويغ لمقولات النحويين ونظرياتهم وأصولهم ويسمى القياس الصناعي .

ومن التسمية نستطيع أن نفهم أن وظيفة أسناد صناعة النحو وتوظيفها وإقامة الدليل على صحتها ومن الامثلة : أنهم يقولون المضارع أعرب لشبهه بالأسماء بمعنى أنهم قاسوا على الأسماء أما كيف لمحو فيه هذا الشبه فهم يقولون أنه يشبهه في البناء وزن اسم الفاعل وكذلك في حركاته وسكناته , فـ(ذاهب) مثل (ذهب) ويشبهه في المعنى فهو يعمم ويخصص ويكون عاما حين يقترن بأداة تصرفه للاستقبال . فالقياس الصناعي تسويغ المقولات ويجاد لأقوالهم ومثلا لماذا عملت (أن) لأنها اشبهت الفعل لفظا ومعنى فقاموا (لا) النافية للجنس على (أن) فصارت تنصب وترفع لأنها تؤكد المنفي كمال تؤكد (أن) المثبت , فثبتها من حيث التوكيد بأن حملت عليها في العمل .